الفصل الثالث

البـديع فن عـربى

السؤال الذى يتبادر إلى الذهن ويطرحـه نـص الجـاحظ عـن المذهـب البديعـى أعلامه وأتجاهاتهم : هل يتعارض حديث الجاحظ عن مدرسة البديع وأعلامهـا مـن المولدين وخصائصها الفنية مع قول الأردستانى فـى كتابـه (لمـع صناعـة الشـعر) الذى نقله إلينا أبو طاهر البغدادى فى كتابه (قانون البلاغة) ومؤداه إن البديع قديـم فـى الأدب العربـى ؟ الاجابـة عـن هـذا السـؤال أن لا تعـارض بينهمـا ؛ فحديـث الجاحظ عن مدرسة البديع من المولدين أراد به أن هذه المدرسة قد صـارت تطلبـه بإصرار ويتنافس أعلامها فى التأنق فى صنعتهم ويتخذ كل منهم وجوها من البديع أثيرة عنده فى تصوير معانيه ، وصار لكل منهم جمهوره الذى يرضيـه هـذا الفن ويتحمس له .

ولا ينفى هذا القول أن البديع قديم فى العربية ، والجاحظ سبق الأردستانى فيما ذهب إليه ودلل عليه فقال :" والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأربت على كل لسان ، والراعى كثير البديـع فـى شـعره ، وبشـار حسـن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع (٢٥).

وقد فصل الأردستانى مـا أجملـه الجـاحظ عـن مدرسـة البديـع مـن الشـعراء المولدين فقال :

" فلما أفضى الشعر إلى المحدثين .... تكلفوا الاحتذاء عليها وسموها البديع ...."

وذهب الدكتور شوقى ضيف إلى وصف قول الجاحظ (والبديع مقصـور علـى العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة) بأنه كان غير جاد فيه ، قال:"ولعله لم يكن

جادا كل الجد حين خص العرب بالبديع لأن كل أدب لايخلو من أى تشبيه واستعارة وغير ذلك من فنون البديع" (٢٦).

ونكرر القول إن الجاحظ كان لا يدخل الصور البيانية فى البديع وانتقد من خلط بين المجاز والبديع . ونضيف أن يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩هجرية فى كتابه (الطراز..) دلل على ما ذهب إليه الجاحظ ، وقال :

" اعلم أن كل موضوع من الكلام ليس صالحا لعلم البديع وإنما يصح فى مواضع من الكلم دون مواضع ..."

وجملة المداخل التى يختص بها شروط أربعة : الشرط الأول أن يكون واردا فى الكلام المنظوم من هذه الأحرف المعتادة ، أعنى حروف العربية ، وهى التسعة والعشرون فلا يجوز دخوله إلا فيما كان مألوفا منها من الكلمات العربية دون غيرها من الكلم الفارسية والعبرانية ، والتركية فهو مختص من بين سائر اللغات باللغة العربية .

الشرط الثانى : أن يكون واردا فى الكلام الإسنادى التركيبى الذى يختص بالمعانى المفيدة..

فلا يكفى فيه وجود الكلم العربية المفردة .... لأنه لابد من اختصاصه بالإفادة .

الشرط الثالث : أن يكون واردا فى المجاز ، فلا يعقل البديع إلا إذا كان الكلام واقعا فى رتبة المجاز فأما ما كان من الكلام موضوعا على أصل حقيقته فلا مدخل له فيه ، ويؤيد ما ذكرناه ويوضحه أن السعة فى الكلام والإفتنان فيه ، إنما يكون حاصلا بالدخول فى الأنواع المجازية، فأما الحقائق فهى قليلة بالإضافة إلى المتصرفات المجازية وهو الذى أوجب انشعاب البديع إلى تلك الأصناف.. فإنه لم يقع اختلافها إلا لما يتعلق بها من التصرف فى المجاز والدخول فيه كل مدخل ،

ولهذا فإن العرب ممتازون فى كلامهم على العجم بهذه الخصلة ، فإن الشاعر من العجم ربما ذكر كتابا طويلا من أوله إلى آخره شعرا على صفة واحدة من غير اختلاف فيه كما تفعله العرب فى قصائدها من اختلاف بحورها ورويها ، ومقاصدها ومغازيها المتباينة ، كما يحكى عن الفردوسى من شعراء العجم أنه نظم كتابا وجعله ستين ألف بيت يشتمل على تاريخ الفرس ، ومثل هذا لا يقصد فى لغة العرب مع أن اتساعها أكثر من اتساع لغة العجم .

الشرط الرابع : أن يكون الكلام حاصلا من بين أودية المجاز والكناية والتمثيل المضمر الأداة لأن بهذه الأمور يحصل اليقين فى الكلام ، ويكثر الاتساع لأجلها ، فهذه الشرائط لابد من اعتبارها فى علم البديع وإحرازه "(٢٧).

وبهذا أثبت يحيى بن حمزة العلوى أن الجاحظ كان جادا فيما ذهب إليه دون أن يشير إلى عبارة الجاحظ وقبل أن يقول الدكتور شوقى ضيف ما قال. وموجز كلام يحيى بن حمزة العلوى أن البديع فن عربى تميزت به العربية وانفردت به عن غيرها من اللغات .